والأدب العربى تبادل بدوره التأثير والتأثر مع الآداب التى التقى بها بعد انتشار موجة الفتوح الإسلامية فى المناطق التى كان يوجد بها الأدب الفارسى على نحو خاص ، أو بعد انتشار موجة الترجمة فى نهاية العصر الأموى وبدايات العصر العباسى من الآداب اليونانية والهندية، وكان لذلك كله تأثيره فى ازدهار بعض الأجناس الأدبية، ونشأة بعضها الآخر ، وحدوث تطورات فى التفكير والتعبير الأدبى على هذا الجانب أو ذاك ... وقد امتد تأثير الأدب العربى كذلك فى أعقاب اتصال الإسلام بأوربا سواء من خلال الأندلس أو جزر البحر المتوسط أو التجارة أو الحروب الصليبية أو الاستعمار أو البعثات وإحياء حركات الترجمة فى العصر الحديث ، وكل ذلك مكن هذا الأدب من أن يتبادل التأثر والتأثير مع الآداب الغربية فى القديم والحديث .

وجود الظاهرة - كما قلنا - يسبق اكتشافها والاعتراف بها ودراستها ، ومن ثم فقد كان وجود التأثير والتأثر بين أدبين مختلفين أو أكثر سابقا على وجود العلم الذى يدرس هذه الظاهرة وهو علم « الأدب المقارن»، فلم تكن الظروف التاريخية تساعد على قيام هذا اللون من الدراسات قبل العصور الحديثة .

ولقد كان من بين هذه الظروف ، تلك النظرة التى كانت تتبادلها الشعوب فى التاريخ القديم والوسيط ، وهى نظرة يعتقد من خلالها كل شعب أن لغة غيره من الشعوب أقل قدرا، أو هى على أحسن تقدير أكثر غموضا من لغته هو ، وقد يتبدى ذلك من خلال ظلال الكلمات التى تدل على معنى « الأجنبى » فى اللغات المختلفة، فاللغة العربية كانت تعبر عن هذا المعنى بكلمة « أعجمى» وهى كلمة يلتقى فى جذر معناها ، الحيوان غير الناطق والأجنبى الناطق بغير العربية ، وفى بعض اللغات الأجنبية تأتى كلمة BARBARE وهى مشتقة من الكلمة اللاتينية BARBARUS لكى تشير منذ عصر الإغريق والرومان إلى معنى « الأجنبى» من ناحية، وغير المتحضر من ناحية ثانية [1] .

---

(١) Voir. Dictionnaire Robert . P. 145- Paris 1976.

على أن هذه النظرة كانت تتجاوز الشعور الجماعى العام إلى آراء العلماء . فالجاحظ فى القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) يرى أن البلاغة الكاملة مقصورة على العرب « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان [1] » .

والكاتب الفرنسى بوهور Bouhurs فى القرن السابع عشر يقول « إن نطقنا نحن الفرنسيين هو النطق الطبيعى ، فلغة الصينيين والآسيويين غثاء ، وكلام الألمان صخب وضوضاء ، وحديث الأسبان موقّع ، ومنطق الإيطاليين زفير ، ولغة الإنجليز صفير، والفرنسيون وحدهم هم الذين يتكلمون [2] » .

يضاف إلى ذلك هذه النظرة التى كانت تحكم فلسفة الجمال حتى القرن السابع عشر فى أوربا : كان الرأى السائد أن هناك نموذجا للجمال المطلق فى الفن، تحاول الآداب أن تقترب منه كل على طريقتها ، لكن الآداب « القديمة» هى التى استطاعت أن تصل إلى أقرب نقطة من هذا النموذج المطلق ، وتتمثل تلك الآداب عند الإوربيين فى الأدبين الإغريقى واللاتينى على نحو خاص ، ومن ثم كانت الدعوة إلى لفت الأنظار إلى هذه الآداب ومحاولة محاكاتها قبل كل شىء [3]. وهى دعوة مع ما كان لها من أهمية فى عصر الإحياء الأوربى ، ومع ما لقيت فى البدء من صعوبة لتضمنها الدعوة إلى تجاوز أدب العصور الوسطى المسيحى ومحاكاة الأدب الإغريقى الوثنى، الأمر الذى لم يرض رجال الدين الذين كانت لهم السيطرة فى ذلك الوقت ، مع أهمية هذه الدعوة فإنها كانت تحجب الأنظار عن إمكانية دراسة الآداب المعاصرة والمتجاورة وتبيُّن مواقع التأثير فيها .

لكن القرن الثامن عشر يشهد تغييرا لذلك الأساس الفلسفى ،.ويدعو الفيلسوف بوس Bos إلى النظرية النسبية فى الجمال، وهى التى تنادى بأنه لا

---

(١) انظر البيان والتبيين ٤ : ٥٥ .

(٢) نقلا عن : د. غنيمى هلال : الأدب المقارن، الطبعة الثالثة ص ١٨ .

(٣) S. JEUNE. Litterature Generale et Litterature Comparee: essai d' orientation P. 32 .